الفصل الأول

أثر التربية في بناء الشخصية الإنسانية

التربية والتعليم

التربية عملية إنسانية النزعة، ذاتية المنطلق، اجتماعية المحتوى. وهي طريقة الحياة، أو الحياة ذاتها. ولقد قام الإنسان منذ عهد آدم عليه السلام بعملية التربية لصغاره والناشئين، ليساعدهم على النمو السليم في يومهم الحاضر، وفي سبيل تلبية حاجاتهم العضوية المتطورة ومتطلباتهم الروحية والجسمية والعاطفية والعملية، وإعدادهم لمستقبل منظور قريب كأفراد وكأعضاء في الجماعة التي ينتمون إليها.

فالتربية ضرورة، وهي واجبة، لأنها تنقل الوليد البشري من مجرد كائن عضوي إلى إنسان ذي شخصية متمايزة[1].

وقضية التربية والتعليم موضوع عظيم الشأن بالغ الأثر، استأثر باهتمام جميع الأمم، واهتم به العلماء والمفكرون عبر العصور. وليس الأمر بغريب، فالتربية والتعليم أساس كل تقدم وإصلاح، وعنوان كل تغيير ونهضة، والطريق الموصل إلى تهذيب النفوس وتثقيف العقول وبناء الأمم[2].

وحاجة الأمم إلى التربية لا تقل عن حاجتها إلى المال والقوة والعدة. ذلك لأن الأمة لا يمكنها أن تشق طريقها إلى المجد، وتسلك سبيلها إلى العلاء، إلا إذا نالت نصيباً وافراً وقسطاً كبيراً من التربية السليمة الصحيحة[3].

---

(1) الرسول العربي المربي - د. عبد الحميد الهاشمي، ص: 351.

(2) التربية في الإسلام - أحمد فؤاد الأهواني، ص: 8.

(3) التربية في القرآن - محمد عبد الله السمان، ص: 14.

الفيلسوف الألماني الشهير فيخته، يقول بعد هزيمة ألمانيا: إن التربية وحدها هي التي تستطيع أن تنقذنا من الشر الذي وقعنا فيه[1].

ولقد اهتم المسلمون اهتماماً كبيراً بقضية التربية والتعليم، وعالج أئمتهم ومفكروهم وعلماؤهم هذا الموضوع.. وكانت لهم مواقف سديدة، ومناهج أصيلة في هذا المضمار، مقتدين في ذلك برسول الله ﷺ أول معلم في الإسلام[2].

ولقد أهمل علماء التربية في الغرب دور المسلمين في هذا المضمار، وتجاهلوا عن قصد دور علماء تربويين عظماء كالغزالي وابن خلدون الذين أدركوا أن العلم وحده لا يكفي ليكون سلاح المعلم، وأنه لابد للمعلم من أن يعرف فنون التربية ليتمكن من دراسة نفسية الطفل والنزول إلى مستواه، والاتصال العاطفي به، ليكون ذلك جسراً يوصل خلاله العلم إلى عقل التلميذ[3].

فَعَلَ علماء الغرب ذلك، بالرغم من أن أوروبا خلال القرون (7-15) الميلادي كانت غارقة في ظلمات الجهل والتخلف.. وكانت بالمقابل العواصم الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف، ودمشق وبغداد والقاهرة وتونس وفاس وتلمسان وقرطبة وغيرها مراكز الإشعاع العلمي والتربوي الإنساني.

التربية الإسلامية من قضايا العقيدة

وإذا كانت بعض العلوم.. كالكيمياء والفيزياء والفلك والطب والصناعة والإدارة والهندسة وغيرها من العلوم والفنون.. إرثاً إنسانياً مشتركاً ساهمت في إيجادها وتطويرها المجتمعات البشرية المختلفة.. وبإمكان كل مجتمع أن يستفيد من تطبيقاتها دون حرج.. فإن المسلم لا يملك أن يتلقى في علوم أخرى تختص بحقائق العقيدة، أو التصور العام للوجود، أو تختص بالعبادة، أو بالخُلق والتربية والسلوك والقيم والموازين، أو تختص بالمبادئ والأصول في النظام

(1) معجزة الإسلام التربوية - د. محمود أحمد السيد، ص: 21.
(2) التربية في الإسلام - أحمد فؤاد الأهواني، ص: 8.
(3) التربية الإسلامية - أحمد شلبي، ص: 210.

السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي، إلا من ذلك المصدر الرباني المرتبط بالعقيدة المطبق لتعاليم القرآن الكريم والسنة المطهرة[1].

وعليه فإن حقيقة الإسلام كانت هي القوة الكامنة وراء أفكار المربين المسلمين.. من ابن سحنون (256هـ) إلى القابسي القيرواني (403هـ) إلى الغزالي (505هـ) إلى ابن جماعة إلى ابن خلدون (808هـ) إلى ابن حجر الهيثمي (974هـ).. كلهم نهلوا من معين الإسلام وصدروا عنه.

المرونة التربوية

وقد يظهر لأول وهلة أن هناك تناقضاً بين صفة الأصالة وصفة المرونة في التربية الإسلامية، غير أن الحقيقة التي تمتاز بها التربية الإسلامية هي: أن الأصالة تتصل بكل ما ورد فيه أثر من عقيدة أو عبادة. وما لم يرد به أثر فهو مجال اجتهاد وقياس واعتبار للمصالح، ذلك في المجال التشريعي، وهذا المفهوم أشد وضوحاً وصراحة وسعة في مجال التربية، وهو الذي نستطيع أن ندعوه: (الاجتهاد التربوي). فكل ما يعمل لتحقيق الأصول من طرائق حديثة مبتكرة، ووسائل تعليمية مخترعة، ومؤسسات تربوية مستحدثة، ومجالات علمية وتعليمية ومهنية مفيدة.. كل ذلك مجال للاستفادة بما تحمله روح الأصالة الإسلامية من مرونة عملية، لا ترضى بالجمود أو الركود أو التقوقع. ثم إنه كلما تقدمت الدراسات النفسية في فهم الإنسان، فإن التربية الإسلامية تستفيد من معطيات هذا العلم في مجالات التجريب والاختبارات وفيما يتصل بالإنسان من وسائل تعليمية، واكتشاف ميوله ومواهبه، والقدرة على توجيهه علمياً ومهنياً.

فليست كل وسيلة تربوية ألفناها خيراً أو أصيلة، وليست كل وسيلة مبتكرة سبقنا إليها غيرنا هي شر مطلق. فالأصالة التزام بالعقيدة والخلق والعبادة والسلوك، ثم ننطلق على أساس عاقل متطور متجدد يحسن التكيف والاختيار لكل جديد نافع[2].

---

(1) معالم في الطريق - سيد قطب، ص: 126 بتصرف قليل.

(2) الرسول العربي المربي - د. عبد الحميد الهاشمي، ص: (400 و401).

تطور الفكر التربوي الإسلامي

لقد كان واضحاً أن هذه الأمة التي انتفضت من تراب الأرض فوصلت إلى السماء. والتي قامت من شتات متناثر لا يكاد يلتقي على غير الصراع والحرب، فإذا هي أمة صلبة متماسكة لا مثيل لها، تفتح وتعمّر وتبني، وتقيم مُثلاً أخلاقية وإنسانية غير معهودة، وتنتشر في سنوات قليلة في رقاع الأرض، تنشر النور والهدى.. إنما هي من نتاج المنهج الإسلامي القويم في التربية[1].

◄ كان الفكر التربوي الإسلامي (خلال هذه المرحلة) على لقاء مستمر مع مختلف أنواع الفكر التربوي: الهندي والفارسي واليوناني والروماني والفكر الأوروبي عن طريق الأندلس وأوروبا الشرقية وجزائر البحر المتوسط وسواحله الشمالية، وحيث كان الفكر التربوي الإسلامي قوياً مزدهراً، كان التأثر عارضاً ننقل ما يفيد، ونرفض ما لا يفيد.

◄ وفي مرحلة تالية بدأت عوامل التخلف تعمل في بنيان الأمة المسلمة، وعاش الفكر الإسلامي فترة انعزال وجمود.. فصارت التربية الروحية المؤمنة بحوثاً جدلية عقيمة، والتربية التعبدية خلافات مذهبية متزمتة، والتربية العلمية بعيدة عن علوم الطبيعة والحياة. واستمرت هذه المرحلة خمسة قرون عليلة، من القرن السابع إلى الحادي عشر الهجري.

في مرحلة جمود الفكر التربوي الإسلامي هذه، تغلب الفكر الأوروبي المتوثب في مختلف الميادين العسكرية والعلمية، وسيطر الغرب على معظم البلاد الإسلامية عسكرياً.. وهُزم المسلمون فكرياً وتربوياً..

في هذه المحنة ونتيجة عوامل داخلية وخارجية، انقسم المجتمع الإسلامي إلى فريقين: فريق خضع لمبدأ (عقدة النقص) لدى المغلوب في نظرته للغالب، فوضع الإسلام في قفص الاتهام وأنكر أي دور للفكر التربوي الإسلامي.. وفريق تمسك (بمغالاة) بكل ما هو موجود في العالم الإسلامي بحقه وباطله.. بخيره وشره.. بأصيله ودخيله.. بنافعه وضاره.

---

(1) منهج التربية الإسلامية - محمد قطب (1: 10).

◄ وجاءت مرحلة تالية بدأ فيها العالم الإسلامي (بعد نكسته) يتحرر في مختلف الميادين.. ومع تحرره العسكري والاقتصادي بدأ تحرره النفسي والتربوي.. ولقد تميّز الوعي التربوي الإسلامي الحديث بعدّة مزايا أهمها: التمسك بالأصالة، ورفض كل تميع أو ذوبان في شخصية الآخرين، وتَقَبل كل ما هو نافع مفيد مما ينسجم مع الفكر الإسلامي الأصيل من أي مصدر كان على قاعدة الحكمة ضالة المؤمن..

وهذا التميز في بناء الشخصية وعدم التميع في شخصيات الآخرين هو سمت كل الأمم التي تحترم ذاتها.. فاليابان عندما خطت خطواتها الأولى في سبيل التقدم لم تنس يوماً يابانيتها.. وأمريكا كذلك.. والصين كذلك.. وكل أمة تحترم عقيدتها تتمسك بها.. وتستفيد من غيرها بما لا يتناقض مع هذه العقيدة.

◄ نحن اليوم في مرحلة إعادة بناء نظامنا التربوي الذاتي الحرّ، القائم على التصور الإسلامي السليم، العامل على بناء الشخصية الإسلامية المتميزة[1].

التربية النبوية

لم يكن غريباً أن ترافق التربيةُ الدعوةَ الإسلامية منذ لحظاتها الأولى، وأن يكون الرسول ﷺ - وهو خريج المدرسة الإلهية التي سبق وأعدت غيره من الأنبياء - أول معلم في الإسلام. فما أن أُمر بتبليغ الرسالة حتى اتخذ للإسلام أول مدرسة وهي (دار الأرقم)، يجتمع فيها مع الثلة المؤمنة، يتلو عليهم آيات القرآن، ويعدّهم إيمانياً وتربوياً لتحمل ما ينتظرهم من أعباء[2].

◄ خرج رسول الله ﷺ ذات مرة من بعض حجره، فدخل المسجد. فإذا هو بحلقتين من الناس: **إحداهما**: يقرؤون القرآن، ويدعون الله. **والأخرى**: يتعلمون ويعلّمون. فقال النبي ﷺ: **«كل على خير، هؤلاء يقرؤون القرآن، ويدعون الله، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلمون ويعلّمون وإنما بعثت مُعلماً»** وجلس معهم[3].

---

(1) الرسول العربي المربي - د. عبد الحميد الهاشمي، ص: (25-33) بتصرف.
(2) الأيديولوجيا والتربية - عبد الغني عبود، ص: 421.
(3) مسلم.

◄ وفي الحديث عن السيدة عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتا، ولكن بعثني معلماً ميسراً»**[1].

◄ وقال معاوية بن الحكم بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ، إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله. فرماني القوم بأبصارهم. فقلت: واثكل أماه. ما شأنكم تنظرون إليّ؟! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم. فلما رأيتهم يصمتونني لكي أسكت سكت. فلما صلى رسول الله ﷺ - فبأبي وأمي، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه - والله ما نهرني ولا ضربني ولا شتمني.. وإنما قال: **«إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح، والتكبير وقراءة القرآن»**[2].

مقومات التربية النبوية

إن دراسة التربية الإسلامية في عهد النبي ﷺ وأصحابه، من مصادرها الرئيسة: (القرآن الكريم والسنة المطهرة)، توصلنا إلى النتائج التالية:

1 - البيئة الاجتماعية الصالحة لها دور مهم في نجاح عملية التربية والتعليم.

2 - عدم يأس المربي من عملية الإصلاح ولو كانت البيئة الاجتماعية جاهلية.

3 - ركزت التربية في مكة على تربية الطليعة المسلمة، فكانت مرحلة تكوين قيادات المستقبل.

4 - ركزت التربية في المدينة على تربية الأمة وإصلاح المجتمع الإسلامي، فكانت مرحلة التمكين.

5 - كان للمرأة دور واضح في التربية الإسلامية.

6 - أصول التربية الإسلامية تتلخص في:

◄ بناء العقيدة وإخلاص العبادة لله تعالى وتوحيده والإيمان به ﷻ وبرسله وباليوم الآخر.

◄ الاستفادة من الخبرات السابقة واللاحقة.

◄ التدرج في العملية التربوية.

---

(1) مسلم.

(2) المصدر نفسه.

◄ استمرار العملية التربوية.

7 - أما ميادين التربية النبوية فكانت:

◄ ميدان العقيدة.

◄ ميدان التزكية.

◄ ميدان الإعداد الفكري والتربوي.

◄ ميدان الحكمة.

8 - أما المصادر التي تستمد منها التربية الإسلامية أصولها فهي: القرآن الكريم والسنة المطهرة والسيرة العطرة، وهي تدعو نظرياً وعملياً لتحقيق التربية الصحيحة للفرد وللأسرة وللمجتمع وللأمة الإسلامية بعامة.

9 - المجتمع الإسلامي ككل يمثل مؤسسة تربوية واحدة، يتعلم فيها الأفراد كل ما يحتاجونه من أمور دينهم ودنياهم على يد القائد المصطفى ﷺ، بالإضافة إلى المسجد، وحجرات النبي، ومنازل الصحابة، وما يحدث في السوق وفي جميع أنحاء المجتمع.. كل قام بدور المؤسسة التربوية خير قيام[1].

التربية ورسالة المسلم

وإذا كانت وظيفة المسلم في هذه الحياة.. هي المضي في طريق النبوة، وإعادة بناء المجتمع على الصورة المثلى التي أرادها له ربه أن يكون.. يسعد فيه الإنسان.. وتستقيم علاقاته.. وتتناغم وشائجه مع المجتمع والكون والحياة.. فإن قيام المسلم بوظيفته هذه يعتمد اعتماداً رئيساً على ما يتهيؤ له من إعداد خاص وتربية متمايزة بحيث يصبح من نوعية متفوقة قادرة على توظيف الطاقات المحيطة به، بذكاء وفاعلية.. وتحويلها إلى قوة واقتدار وبناء، وذلك بفضل المهارات الاجتماعية، والقيم الخلقية والطاقات الإيمانية التي وفرتها له التربية السليمة.

وإذا كانت التربية الإسلامية التي أسس بنيانها رسول الله ﷺ على أساس من القرآن والسنة، هي التي نهضت بمجتمع متخلف بكل المقاييس وجعلتها نموذجاً فريداً بين المجتمعات.. فإنها اليوم قادرة كذلك - إذا تلمس المسلم الأُسس

(1) التربية في عهد الرسول نشأتها وتطورها - د. حامد سالم عايض الحربي، (125-133) باختصار.

والأصول الربانية ذاتها.. وتفاعل معها التفاعل ذاته.. وانطلق بها لتغيير المجتمع بعد أن يغير نفسه بما يُرضي الله - على إنهاضِ المجتمع من جديد.

والتربية (في تعريفات الغربيين اليوم) لا تبتعد كثيراً عن المفهوم الإسلامي فهي: (الجهد الذي يقوم به آباء شعب ومربوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التي يؤمنون بها)[1].

وإذا أردنا أن نتعرف على الثغرات التربوية التي حالت بين المسلم والإقلاع في عملية إعادة البناء.. لوجدناها ثغرات تتعلق بالفهم.. وثغرات أخرى تتعلق بالتطبيق.. على المسلم أن يحسن مراجعتها فيعود بالتوجيه إلى القرآن والسنة.. ويمارس التربية في ميادين الحياة.. لا في صوامع الانعزال أو ساحات الترف الفكري.

المعركة مستمرة

لقد تنبه الأعداء إلى خطورة التربية، فركزوا جهودهم على تثبيت مبادئهم وخاصة في المدارس ومناهج التربية والتعليم، لا سيما في مدارس البنات والمعاهد الخاصة، معتقدين أن ذلك هو السبيل الأهم في صرف المسلمين عن الإسلام[2].

و(لقد استطاع النشاط التعليمي والثقافي عن طريق المدارس التبشيرية والصحافة، أن يترك في المسلمين أثراً جعلهم يبدون في منظرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد)[3].

(ولم يكن هدف هؤلاء إخراج المسلمين من الإسلام ثم إدخالهم إلى الديانة المسيحية.. إنما إخراجهم من الإسلام.. عن طريق التربية والتعليم.. وإبقاؤهم بلا دين)[4].

إن مسألة التربية والتعليم في البلاد الإسلامية مسألة مستقلة قائمة بذاتها، لأن

---

(1) سمات التربية الإسلامية وطرقها - د. عجيل جاسم النشمي، ص: 15.
(2) تجربة التربية الإسلامية - د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: 19.
(3) إلى أين يسير الإسلام - جيب.
(4) الغارة على العالم الإسلامي - زويمر.

الأمة الإسلامية أمة خاصة في طبيعتها ووضعها، هي أمة ذات مبدأ وعقيدة، ورسالة ودعوة، فيجب أن يكون تعليمها خاضعاً لهذا المبدأ والعقيدة، وهذه الرسالة والدعوة، والتربية والتعليم هو أداة لإنشاء الأجيال التي تؤمن بهذا المبدأ، وتدين بهذه العقيدة، وتحمل هذه الرسالة، وتؤدي هذه الدعوة، وكل تربية لا تؤدي هذا الواجب فليست تربية إسلامية ولا تعليم إسلامي[1].

وإذا انتبه أعداء المسلمين لهذا الأمر..

فمن الأجدر أن ينتبه إليه المسلمون، ويعملون على تصحيحه.

خلاصة الفصل الأول

أثر التربية في بناء الشخصية

- أهمية التربية في تهذيب النفوس وتثقيف العقول وبناء الأمم.
- الأصالة في التربية.
- المرونة التربوية.
- تطور الفكر التربوي.
- المنهاج النبوي في التربية ومقوماته.
- التربية ورسالة المسلم.
- المعركة مستمرة.

(1) نحو التربية الإسلامية الحرة - أبو الحسن الندوي، ص: 3.